

جامعة المنصورة
كلية الآداب

إغتيـــال آريـــوس

إعـداد

أ.د. رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

مجلة كليـة الآداب - جامعـة المنصـورة
العدد التاسع عشر - أغسطس ١٩٩٦

" إغتيـــال آريـــوس "

أ.د. رأفت عبد الحميد
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة عين شمس

فى يوم من أيام سنة ٣٣٦ ، ارتاعت القسطنطينية لخبر رددته الجموع ، إنطلق من أحد الشوارع الخلفية فى العاصمة الإمبراطورية الجديدة ، يقول .. مات آريوس .. قس الإسكندرية الأشهر !! وانقسم الناس بين مصدق للخبر ومكذب ، بين فرح فخور ، ومغتم كسير . وتساءل الجميع .. كيف حدث ذلك ؟ ولماذا فى هذا الوقت بالذات ؟! ولماذا أيضاً على هذه الصورة البشعة ؟! أليست المدينة كلها تستعد للقاء الغد المرتقب بين الراحل هذا ، واسكندر أسقف حاضرة الإمبراطورية ؟ أليس على موعد بأمر الإمبراطور قسطنطين ، لمناظرة الأسقف حول قاعدة الإيمان ؟! أليس على موعد لإقرار قبوله فى شركة الكنيسة ثانية بعد الحرمان ؟!

ودقت أجراس الكنيسة ابتهاجاً .. وصممت دوائر القصر ! وأشارت أصابع الاتهام من جانب أنصاره ، إلى هنا وهناك . ولف القضية مع التاريخ غموض كثيف كقطع الليل البهيم .. نحاول أن نتلمس الخطى فيه بأمانة المؤرخ ونزاهة القاضى . وهذا يقتضينا أن نرتد على آثارنا قصصاً ، لنكون مع الأحداث عند بداياتها .

كان ذلك منذ ثمانية عشر عاماً خلت قبل أن يلقى آريوس حتفه ، أعنى عام ٣١٨ ، عندما اختلف هذا القسيس السكندرى فى الرأى مع أسقفه ، حول الأقنوم الثانى فى الثالوث .. الكلمة .. الإبن . فبينما كان إسكندر أسقف الاسكندرية ، يبشر بـ « الأب الوحيد غير المولود .. الواجب الوجود ، لا يتغير ولا يزول ، هو غاية الكمال ، لا يتكثر عليه نقصان أو زيادة . معطى الشريعة والأنبياء والأناجيل ، رب الأنبياء والرسل وكل

القديسين ، وبرب واحد يسوع المسيح إبن الله الوحيد المولود .. ليس مولوداً من العدم بل من الآب على نحو لا يدركه العقل ، الإبن لا يتغير والآب .. الإبن لا ينقص عن الآب شيئاً سوى أنه ليس غير مولود .. هو الإبن الكامل وصورة الآب التامة » (١) .

بينما كان اسكندر يبشر بذلك رعيته ، كان آريوس يرى رأياً مخالفاً ، ويؤمن به عن اقتناع كامل ، يتفق عنده ومنطق الأمور التي تقتضي أسبقية الآب في الوجود على الإبن .. فـ « الله عند آريوس لم يكن دوماً أباً .. فهناك فترة من الزمن لا يكن الله فيها أباً ، ذلك أن كلمة الله لم تكن دواماً .. ولكنها من العدم نشأت . فالله قد جعل هذا الذي لم يكن من ذلك الذي لا وجود له . ذلك أن الإبن مخلوق ، لا يساوي الآب في الجوهر ، ليس « الكلمة » الحق الطبيعية للآب ، ليس حكمته الحقة ، إنما هو أحد الخلائق ، دُعي « الكلمة » خطأ و « الحكمة » . فهو قد نشأ بذات « كلمة » الله ، وبالحكمة الكامنة فيه ، التي بها سوّاه الله وسِواه . ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق . والآب .. كيف يصفه الابن ؟! إن الكلمة لا تعرف كنه الآب ، الابن لا يعاين الآب يقيناً ، بل الابن لا يعرف جوهره هو !! من أجلنا جُبل .. يخلقنا الله به ، لم يكن يوجد لولا أن شاء الله خلقنا » (٢) .

وبشيء من الوضوح يمكن القول إن تعاليم الآريوسية كانت تنطلق من اللاهوت العلمي الأفلاطوني القائم على نظرية العقول الثلاثة ، والتي ينحدر منها تلقائياً الفكرة القائلة بأن الخلق المباشر محال . ومن ثم فالآريوسية ترى الآب هو الإله الحق ، في مقابل الإبن الذي ليس إلهاً حقاً ، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق .. فليس هناك إثنان غير مخلوقين ، إلهان لا متناهيان . ولقد جاء ذلك في

---

(١) THEODORETIS, historia Ecclesiastica, I, 3.

(٢) ATHANASIUS, depositio Arii; THEOD. hist. eccl. I, 3.

وثيقة رسمية كتبها أحد زعماء الآريوسية ، هو يوساب Eusebius أسقف نيقوميديا Nicomedia فى آسيا الصغرى ، جاء فيها :

« البتة لم نسمع بكائنين ليسا مولودين ، وما علمنا بانقسام الواحد إلى اثنين . ولم نع على الإطلاق .. ولم نعتقد ، أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد ، ولكننا نؤكد أن غير المولود واحد » (٣) . على ذلك .. فالله عند آريوس لم يكن دائماً آباً ، لأنه قبل أن يوجد الابن كان وحيداً ، ثم أراد الله أن يخلق موجوداً معيناً أسماه « اللوجوس » .. « الحكمة » .. « الإبن » ، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته ، ولهذا توجد حكمتان ، حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن ، كما أن فى الله « لوجوس » آخر غير الابن ، وقد سمى الإبن تكريماً له « باللوجوس » . ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شئ .. سرمدية . أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، إنما هو إحدى هذه القوى ، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر خالقاً ، أما علاقته بالله فهو مخلوق ، وآلة للخلق وأداة (٤) .

لم يكن آريوس أول الذين ظهروا على الكنيسة بمثل هذه الأفكار ، ولم يكن آخرهم فمنذ أخريات القرن الأول الميلادى ، راح كثير من رجال الإكليروس يعملون الفكر فى معتقدهم ، لمجابهة التحديات التى أمست أمراً واقعاً ، بعد أن خرجت المسيحية من نطاق اليهودية ، ومضت إلى طريق أمم ، ومن ثم كان على آباء الكنيسة حتماً مقضياً ، أن

---

(٣) EVSEBIUS, epistola ad Paulinum, in THEOD. hist. eccl. I, 5

(٤) THEOD. hist. eccl. I, 4.

وراجع كذلك الكتب التالية :

- Dictionnaire de théologie Catholique, Paris 1923, v. I, 2, c. 1786 .
- A dictionary of christian biography, London 1877, v. I .
- Jackson (F.), The history of the christian church from the earlist times to the death of S. Leo, London 1909, p. 109 .

يتخلوا كارهين عن التبشير بمعجزات المسيح على الأرض ، وأن يحاولوا صياغة المسيحية في قوالب عقلانية ، تتحدى فكر الأمميين ، أصحاب الثقافات القديمة الزاهرة في حوض البحر المتوسط ، فلا غرابة إذن إذ اختلطت المسيحية بالفلسفات السائدة ، وأخذت عنها وأعطتها ، وتفاعلت معها . بتعبير آخر .. كان على المسيحية أن تتفلسف ، رغم أن هذا الاتجاه لم يكن يلقى قبولاً أو استحساناً في أول الأمر من جانب عدد من آباء الكنيسة ، إلى الحد الذي دفع مفكراً مثل كلمنت Clemens السكندري (حوالي ١٥٠ - ٢١٥) ، إلى التندر على هؤلاء النفر ، مشبهاً إحجامهم عن دراسة الفلسفة وعزوفهم عن سبر أغوارها ، بخوف الطفل من القناع ! وراح يبين لهم أن الفلسفة هي سلاح آباء الكنيسة للرد على خصومهم من الأمميين ، وهي سبيل المسيحية كي تخطو إلى الأمام خطوها في ثوب علمي . لقد كان كلمنت يعتبر الفلسفة هدية الإله ، والسبيل إلى المعرفة الحقة للمسيح [٥] .

وتحددت معالم هذه الآراء في اتجاهين رئيسيين ، يتمثل أولهما في مدرسة الاسكندرية اللاهوتية لتفسير الكتاب المقدس ، والتي عرفت في أول الأمر بمدرسة « الموعوظين » Catechesis ثم ذاع صيتها باسم « مدرسة المدافعين » Schola apologetica وهي تعد أول معهد علمي ذا أهمية كبرى للدراسات اللاهوتية في عالم المسيحية الأول ، وغدا آباء هذه المدرسة مسئولين عن صياغة اللاهوت المسيحي ، ووضع التفسيرات والشروح والتعريفات المحددة للأرثوذكسية . وقد اختطت المدرسة لنفسها نهجاً ينبع من اللاهوت الأفلاطوني ، وكان هذا في حد ذاته سبباً في أن الجموع المسيحية في

---

(١) Neander, history of the christian dogmas, London 1882 I, p. 63.
وأيضاً Copleston, A history of Philosophy, New York 1962, v. 2 p. 29.

الاسكندرية ، ومصر بالتالى ، لم تتأثر بهذه المدرسة كثيراً ، ذلك أن الشكل الرمزى ، وحركة التفسير المجازى الصوفى لنصوص الكتاب المقدس ، والتى كانت تتبعها المدرسة فى مسائل الجدل اللاهوتى ، لم تكن تستهوى الكثيرين آنذاك .

أما الاتجاه الثانى فتمثله مدرسة أنطاكية لتفسير الكتاب المقدس ، والتى اعتمدت العقل فى منهاجها ، واتخذت من المنطق الأرسطى ركيزة لجدالها اللاهوتى ، وكان من أبرز أساتذتها لوقيانوس Lucianus فى القرن الرابع الميلادى ، ويوحنا ذهبى الفم Io-hannes Chrysostomos فى أواخر القرن نفسه وأوائل الخامس .

وكان آريوس تلميذاً للمدرستين فى آن واحد ، فقد تلقى تعليمه أولاً فى الاسكندرية ، وتشرب مبادئها ، مستقياً إياها من كتابات أستاذها الأشهر أوريجن Origenes (حوالى ١٨٥ - ٢٥٤) الأفلاطونى الفكر (٦) ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أنطاكية ، وتتلمذ على يد أستاذها لوقيانوس . ونهل من معين أفكاره ، حتى لقد قيل إن مدرسة أنطاكية هى موطن العقيدة الآريوسية ، كما أن لوقيانوس هو الآريوسى قبل آريوس نفسه (٧) . وهكذا جمع آريوس بين الفكر الأفلاطونى مستمداً من تعاليم أوريجن

---

(٦) كان أوريجن السكندرى يؤمن بأن ظهور المسيح على الأرض ، كان صورة لنشاطه الأزلى ، والله عنده خالق منذ الأزل ، وليس فى زمان بعينه وإلا عد ذلك تغيراً فى ذات الله ، والتغير ليس من صفاته . والله الأزلى ولد أو خلق « كلمته » « الإبن » ، الذى على الرغم من كونه ليس إلهاً حقاً ، إلا أنه يشارك فى جوهر الآب . والابن فى رأيه العقل الذى ينظم العالم ، خلقه الله وجعله له تابعاً ليخلق به كل شئ . ومن ثم فالابن واسطة بين الله وسائر الخلائق ، وكذلك الروح القدس يأتى فى مرتبة تالية ، شأن الابن . راجع :

Chadwick , The early church , London 1974 , p. 101 .

Creed, Egypt and the christian church, (in Legacy of Egypt) , Oxford 1947 .

Neander, op. cit. I, p. 66; Copleston, op. cit. p.. 41-42 .

(٧) Downey, A history of Antioch in Syria, New Jersey 1961, p. 338.

السكندرى . والمنهاج الأرسطى مستقى من آراء لوقيانوس الأنطاكى ، وراح يجهر بدعوته فى الاسكندرية وهو يحاور أسقفه إسكندر حول « الكلمة » .

ولما لم يكن الأسقف السكندرى بقادر على أن يحيى فى عقل آريوس وقلبه من جديد ، معتقد الكنيسة الذى يطمئن هو إليه ، فقد دعا إلى عقد مجمع سنة ٣١٩ تمت فيه إدانة آريوس ، وثنى ذلك فى عام ٣٢١ بمجمع أوسع نطاقاً ضم أساقفة مصر وليبيا ، ليدين من جديد آريوس وأفكاره ، وحصل على موافقة جماعية لهذه الإدانة ، فى المجمع المسكونى الأول الذى عقد فى مدينة نيقية Nicaea بآسيا الصغرى عام ٣٢٥ بأمر من الامبراطور قسطنطين Constantinus (٣٠٦ - ٣٣٧) ، وحضره ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً يمثلون كنائس الامبراطورية ، غالبيتهم من النصف الشرقى ، وتمخض المجمع عن قانون للايمان ، جاء فى جوهره رداً على الآراء الآريوسية ، وغدا من بعد قاعدة الايمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة . وكان أهم ما احتواه هذا القانون ، العبارتين المتعلقتين بالمسيح ، وهما أنه « مولود غير مخلوق » وأنه « مساو للآب فى الجوهر » Homoousius « الهوموسية » . وكانت هذه العبارة الأخيرة بصفة خاصة ، باباً فتح على مصراعيه ليلج منه الصراع اللاهوتى سافراً لزمن طويل من بعد آت .

وصدق الامبراطور على قرارات المجمع ، وأمر بنفى آريوس واثنين من مريديه هما يوساب أسقف نيقوميديا ، وثيوجنس Theognis أسقف نيقية مدينة المجمع ، إلى الشطر الغربى من الامبراطورية ، وإن لم يمض على ذلك ثلاث سنوات حتى أمر قسطنطين بعودة المنفيين ثانية إلى ديارهم وكنائسهم فى عام ٣٢٨ ، وهى السنة نفسها التى مات فيها اسكندر وخلفه أثناسيوس Athanasius أسقفا للإسكندرية ، وهو الذى كان يكن عداءً كاملاً لآريوس وآرائه وصحبه ، وارتبط اسمه ارتباطاً كاملاً من بعد بقانون الايمان

النيقى ، وأصبح أشد المدافعين عنه المستمسكين به . ومن ثم رفض قبول آريوس فى شركة الكنيسة ثانية بعد عودته من منفاه ، ولما اضطربت الأمور فى الاسكندرية ، اضطر قسطنطين إلى استدعاء آريوس إلى القسطنطينية ، وحدد يوماً بعينه لإجراء الحوار اللاهوتى بين قسيس الاسكندرية ، وأسقف العاصمة الامبراطورية ، ليتقرر على أثرها قبول آريوس فى شركة الكنيسة ، بعد أن أمر الإمبراطور باعتبار إيمانه قويماً (٨) ، لكن آريوس مات فجأة فى يوم السبت السابق على اليوم الموعود .

وكان أثناسيوس ، الأسقف السكندرى (٣٢٨ - ٣٧٣) هو أول من سجل لنا بقلمه قصة موت آريوس على هذا النحو المفاجئ (٩) ، وذلك فى رسالة بعث بها إلى الراهب المصرى سرابيون Serapion الذى تولى رعاية كنيسة بلدة « تمى » Thumuis فى الفترة ما بين عامى ٣٣٧ - ٣٣٩ ، وكان فى الوقت ذاته يعد الساعد الأيمن لأثناسيوس بعد ذلك ، خاصة فى فترات نفى الأسقف . جاءت هذه الرسالة Ad Serapionem de morte Arii بناء على طلب الراهب نفسه من أسقفه ، كى يبين له الظروف التى أحاطت بموت آريوس . وقد انتهز أثناسيوس هذه الفرصة ، ليبين لسرابيون ومن ورائه جموع الرهبان فى مصر ، موقفه المناوئ وإدانته للآراء الآريوسية ، ويستحثهم على التصدى للآريوسيين ومجابهة تحدياتهم خلال نفية الآن (١٠) .

---

(٨) يمكن الوقوف على تفاصيل كل هذه الأحداث ، بالرجوع إلى كتابنا : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصلين الخامس والسادس - القاهرة ١٩٨٢ .

(٩) يذكر Chadwick أن أثناسيوس ، بعد عشرين سنة من وفاة آريوس ، راح يروج قصة موته فى شكل درامى ، ثم يقول .. وربما تكون هذه القصة مختلفة وغير حقيقية ، وأن آريوس مات معترفاً !! أنظر The early church, p. 136

(١٠) فى الجزء الثالث من كتابنا الدولة والكنيسة ، عرضت لعلاقة أثناسيوس بالسلطة السياسية فى الامبراطورية ، والآريوسيين ، والرهبان ، على امتداد سنين أسقفيته الطويلة .

والرواية كما وردت عند أثناسيوس تقول ، إن آريوس قبيل غروب يوم السبت ، دعته الضرورة المفاجئة والملحة ، إلى أن ينتحى جانباً تاركاً رفاقه ، ليقضى حاجته ، فلما استبطأ الرفاق عودته ، راحوا يلتمسونه فى المكان الذى ذهب إليه لقضاء الحاجة ، فألفوه ميتاً !

وعن أثناسيوس نقل مؤرخا القرن الخامس الكنسيان ، ثيودوريت [١١] Theodore-tus وسوزومين Sozomenos ، نقلاً كاملاً ، وأشارا إلى ذلك صراحة ، وإن كان ثانيهما يزيد على ذلك أن آريوس شعر بآلام حادة فى أمعائه ، دفعته إلى تلبية نداء الطبيعة [١٢] . هذا على حين نجد مؤرخ القرن ذاته ، معاصرهما .. سقراط Socrates يذكر الحادثة نفسها ، ولكنه يضيف تفاصيل كثيرة عن الحالة التى وجد عليها آريوس فى ميتته ، فيذكر أنه ما أن ذهب لقضاء حاجته حتى أصيب بدوار عنيف ، بينما صحب الغائط نزيف حاد ، متضمناً بعض أجزاء صغيرة من الأمعاء والكبد والطحال ! فمات لساعته !! [١٣] .

وما يقوله أثناسيوس ومن نقل عنه ، غاية فى البساطة ، لكنه فى الوقت نفسه غاية فى الغموض ، يقود الى الحيرة . وما يرويه سقراط .. غاية فى التفاصيل ، غاية فى التعقيد ، يدفع إلى الشك والريبة . خاصة إذا أضفنا إلى ذلك ما يذكره من أن المكان الذى فقد فيه آريوس حياته ، ما زال معروفاً لدى الناس فى القسطنطينية فى زمانه يشيرون إليه [١٤] . ومن المعروف أن سقراط كان أحد مواطنى العاصمة الإمبراطورية .

---

(١١) THEOD. hist. eccl. I, 13.
(١٢) SOZOMENOS, historia Ecclesiastica, II, 29.
(١٣) SOCRATES, historia Ecclesiastica, I, 38.
(١٤) Id.

والموت المفاجئ لقس الاسكندرية ، ثم الموت على هذه الصورة بشكل خاص ، يضع أمام الباحث علامات استفهام كبيرة ، دفعت بمؤرخ شهير مثل إدوارد چيبون E. Gibbon إلى القول صراحة بأن آريوس قد مات مسموماً !! بل إن علامات الاستفهام هذه ، لم تكن عن قلم سوزومين ببعيد ، عندما سجل ما يتناقله الناس عن موت آريوس على هذا النحو ، والتفسيرات المختلفة التى يضعها كل فريق ليبرر وجهة نظره فى ذلك الأمر (١٥) . وقريب من هذا جداً ، ما يقوله أثناسيوس بالحرف الواحد : « إن الموت نهاية كل بنى البشر ، وليس لنا أن نلقى باللوم على إنسان ودع الحياة ، حتى ولو كان من بين أعدائنا ، فإنا لا ندرى أيمتد بنا العمر حتى المساء أم يقصر ؟ لكن نهاية آريوس كانت شيئاً فريداً للغاية ، لابد أن يثير عدداً من الملاحظات » (١٦) .

والذى يزيد الأمر حيرة وارتياباً ، أن المصدر المعاصر لهذه الواقعة ، صمت عنها صمتاً مطبقاً ، ولم يشر إليها مطلقاً ، بل لم ينبس ببنت شفة عن موت آريوس ، أعنى بذلك « حياة قسطنطين » Vita Constantini لمؤلفه يوساب أسقف قيسارية فلسطين ، الذى يعد شيخ مؤرخى الكنيسة ، ومداح الامبراطور قسطنطين ، ومن المقربين ! على الرغم من أن يوساب وضع كتابه هذا بعد ثلاث سنوات فقط من وفاة آريوس ، وضمنه العديد من الوثائق الخاصة بالمسألة الآريوسية ، بينما وضع أثناسيوس روايته هذه بعد حوالى عشرين عاماً من ذلك التاريخ ، أى فى خمسينيات القرن الرابع الميلادى .

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام ، وهى أن أثناسيوس كتب روايته هذه إبان بلوغ المد الآريوسى أقصاه ، وذلك على عهد الامبراطور قسطنطيوس Constantius

---

(١٥) SOZOM. hist. eccl. II 29.
(١٦) ATHANAS. ep. ad Serap.

(٣٣٧ - ٣٦١) الذى أعلن اقتناعه الكامل بالآراء الآريوسية ، وحاول فرضها قسراً على شطر الامبراطورية الغربى . ومن ثم نجد أثناسيوس يجمع فى قصته بين الفرح لما حدث ، والحذر . فقد كان آنذاك فى بداية فترة نفيه الثالث (٣٥٦ - ٣٦٢) ، وكان يعتقد أن الامبراطور لا يصدر فى عدائه له ، إلا بناء على نصائح مستشاريه الآريوسيين . لكن الأسقف السكندرى كان واهماً فى اعتقاده هذا ، لذا دفعه حذره إلى أن يذكر فى صدر روايته أنه لم يكن فى القسطنطينية عندما توفى آريوس ، لكن أحد الكهنة ويدعى مكاريوس Macarius كان هناك ، ومنه علم أثناسيوس بتفاصيل الأحداث التى سبقت وصاحبت حادثة الوفاة . وهذه تحسب للأسقف السكندرى حقاً ، فمن المعروف أنه كان منفياً آنذاك فى غالة عام ٣٣٦ ، وذلك بناء على أوامر الامبراطور قسطنطين .

أما سقراط ، والذى دون كتابه « تاريخ الكنيسة » بعد مرور قرن من الزمان على وفاة آريوس ، فيذكر فى أكثر من موضع ، وهو يتناول هذا الأمر ، أنه تلقى معلوماته هذه التى يدونها ، عن طريق ما كانت ألسنة الناس فى القسطنطينية ما زالت تتناقله ، وما اطلع هو بنفسه على بعض جوانبها . ومن الجدير بالذكر أيضاً ، أن سقراط وضع مؤلفه بعد هزيمة الآريوسية ، وانتصار النيقية التى غدت تمثل العقيدة الرسمية للإمبراطورية ، منذ نهاية القرن الرابع الميلادى على يد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥) . ولذا كانت موجة العداء والتشفى ضد الآريوسية فى ذروتها [(١٧)] . ولابد أيضاً ربط الناس حينئذ بين الآريوسية والقبائل الجرمانية التى اجتاحت الإمبراطورية كسيل العرم ، منذ سبعينيات القرن الرابع الميلادى ، وراحت تقوض دعائم الامبراطورية

---

(١٧) راجع تفاصيل هذه الأحداث ، وانتصار النيقية الحاسم ، فى الجزء الرابع من كتابنا : الدولة والكنيسة ، القاهرة ١٩٨٣ .

فـي النصف الغربي ، وكان معظم هذه القبائل قد تحول إلى المسيحية في صورتها الآريوسية ، ولابد أن سقراط كان يعبر عما يفتعل في نفوس معاصريه من عداء ضد هذه الشعوب ، وضد الآريوسية بالتالي ، ومن ثم نرى ما تتسم به روايته من شماتة واضحة .

وفي ظل صمت بعض المصادر المطبق ، وغموض بعضها ، وتعقيدات بعضها الآخر ، وانعدام أي منها عند الجانب الآريوسي ، بعد أن اغتيلت جل إن لم يكن كل الكتابات الآريوسية ، نتيجة لسيادة العقيدة النيقية ، نقول في ظل هذا اللابرنت ، علينا أن نختط طريقنا بصعوبة بالغة ، وموضوعية بحتة ، وصولاً إلى الحقيقة التاريخية أو قريباً منها قدر المستطاع . وهذا يفرض علينا ، من جراء الصورة التي وجد آريوس عليها ميتاً ، وكما جرت بها أقلام خصومه النيقيين ، أن نتساءل عن صاحب المصلحة المباشرة في موت آريوس ؟ أهو الإمبراطور قسطنطين ؟ أم هو اسكندر أسقف القسطنطينية ومن وراءه من النيقيين ؟ بل قد يذهب بنا التساؤل بعيداً إلى حد افتراض أن يكون أنصاره هم المكيدون !!

أتراه قسطنطين ؟! ذلك الرجل الذي حارت في فكره العقيدي العقول ، والذي جعل من المسيحية في الامبراطورية الرومانية ، ديانة شرعية rilígio licita ورفع عن أتباعها إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ؟!

إن قسطنطين لم يكن يعنيه في المقام الأول ، إلا الحفاظ على إمبراطورية ظل يصطرع مع منافسيه على العرش طيلة ثمانية عشر عاماً (٣٠٦ - ٣٢٣) حتى يحفظ عليها وحدتها . ولم يكن يسمح لأي إنسان ، مهما بلغت مكانته ، أن يحدث صدعاً في هذا البناء الذي أقام هو القواعد منه عبر هذه السنين . لقد أصدر قراره بنفي آريوس في عام ٣٢٥ عندما رأى أن الغالبية العظمى من أساقفة الامبراطورية قد أدانوه في المجمع

المسكونى الأول ، وحكموا على آرائه بالهرطقة ، وذلك حتى يبعد شبح الشقاق عن دولته. وبعد هذا التاريخ بعشر سنوات أمر بنفى زعيم النيقية ، أثناسيوس ، عندما رأى أن مسلكه فى مصر وخارجها بات يهدد وحدة الامبراطورية ، وذلك بعد أن تمت إدانته فى المجمع الذى التأم عقده فى مدينة صور سنة ٣٣٥ ، وضم أساقفة الشطر الشرقى من الامبراطورية .

بل إن قسطنطين لم يكن لديه ما يمنعه من التخلص من أقرب الناس إليه ، فقد أقدم على إعدام زوجته وابنه كريسبوس Crispos (١٨) . ولقد التزم شيخ مؤرخى الكنيسة ومداح الامبراطور ، يوساب القيسارى ، الصمت التام إزاء هذه الفاجعة ، وهو يسجل للزمن قصة « حياة قسطنطين » ، وألزم نفسه منذ البداية ، كما كتب بقلمه فى صدر كتابه ، بأن يحدث فقط عن فضائل امبراطور « فاق بمثله وقيمه الآخرين » (١٩) . فهل يمكن أيضاً أن يكون قسطنطين هو الذى أقدم على التخلص من آريوس ، وآثر كاتب سيرته أن ينهج إزاء هذه الحادثة نهجه إزاء مصرع كريسبوس وزوج أبيه ؟!

وقد يكون هناك من الشواهد ، ما يذهب بنا شيئاً ما وراء هذا الاحتمال ، ذلك أن الامبراطور - كما تقول الروايات - كان قد استدعى إليه آريوس فى صبيحة يوم السبت ذاك ، وراح يحاوره حول عقيدته ! وعما إذا كان يؤمن بما آمن به الآباء فى نيقية ، ويطلب إليه أن يقدم ذلك فى وثيقة رسمية تبرئ ذمته (٢٠) ثم أطلقه إلى حين اللقاء فى اليوم التالى مع اسكندر أسقف القسطنطينية . غير أن آريوس لم يلبث أن لقى حتفه عصر ذلك اليوم ، السبت ، على هذه الصورة التى تثير الانتباه ، والكثير من الملاحظات ، على حد

---

(١٨) SOZOM. hist. eccl. I, 5.

(١٩) EUSEB. vita Const. I, 10-11.

(٢٠) ATHANAS. Loc. cit.; THEOD. Loc. cit.

تعبير الأسقف السكندرى أثناسيوس . خاصة وأن الامبراطور ، كان قد بعث فى طلب آريوس من الاسكندرية ، بعد أن كان قد عاد إليها من منفاه ، نتيجة للإضطرابات التى حدثت فى المدينة بين أنصاره وخصومه .

وليس بخاف على أحد ، أن الاسكندرية كانت تمثل للامبراطورية الرومانية صومعة الغلال أو قبو الحنطة ، بل سلة الخبز اليومى للعاصمة الجديدة للإمبراطورية ، لقد كان الامبراطور يدرك جيداً أن فتنة على هذا النحو فى الاسكندرية ، تمتد عدواها إلى باقى أقاليم مصر ، كفيلة بأن تحول دون وصول شحنة القمح السنوية إلى القسطنطينية ، ووعت ذاكرته ما حدث قبل ذلك فى عهود أسلافه وهم فى روما القديمة على ضفاف التيبر ، ومن ثم أمر على الفور بأن يعود آريوس إلى القسطنطينية ليكون تحت سمع الامبراطور وبصره ، ثم كان ما كان . بل إن قسطنطين لم يتوان لحظة واحدة عن إصدار أوامره بنفى أثناسيوس إلى غالة ، عندما بلغه أن الأسقف السكندرى يعتزم العمل على تعطيل إرسال شحنة القمح السنوية من مصر إلى القسطنطينية ، دون أن يكلف الامبراطور نفسه حتى مجرد سماع دفاع أثناسيوس عن نفسه إزاء هذه الاتهام [٢١] .

ولقد كان كل ما يعنى قسطنطين ، هو ضمان الهدوء فى امبراطوريته واستقرار الأمور فيها بعد هذه الحرب الأهلية الطاحنة . ولم يتخلص الرجل من منافسيه العسكريين السياسيين ، ليجد انشقاقاً عقيدياً قد يودى بوحدة دولته . ولم يعتد فكر الامبراطور الرومانى هذا الأمر من قبل ، فالامبراطور دائماً هو « الكاهن الأعظم » Pontifex Maximus وله فى دولته أمر الدنيا والدين . والفكر السياسى الرومانى لا يقبل مطلقاً بوجود دولة داخل الدولة ، ولا هيئة تمارس شئونها بعيداً عن نفوذ الامبراطور وتدخله

---

(٢١) ATHANAS. apologia contra Arianos, 87.

الفعلى ، ومن هذا المنطلق كتب قسطنطين فى عام ٣٢٤ ، بعد أن غدا الامبراطور الفرد ، رسالة إلى كل من اسكندر أسقف الاسكندرية قبل أثناسيوس ، وخصمه آريوس ، حملها مستشاره للشئون الدينية « هوسيوس » Hosius أسقف قرطبة ، جاء فيها :

« ... إنى لعلى يقين أن منبع الجدال الماثل هو ذاك .. فأنت ياالسكندر عندما طلبت إلى الإكليروس إبداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس ، أو بالحرى عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل !! فأنك ياآريوس صررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسناً أن تعمل الفكر فيه ، ولئن خامرك ليدفنن فى غيابة الكتمان . وها هو الخلاف بينكما قد نشب ، بعد أن أغفلتما حق الأخوة ، ووقعت الرعية المقدسة فى تمزق حزبى ، ولم يعد للجسد الواحد وجود ... خطأ إذن فى البدء أن تطرح القضايا على نهج هذا ، والخطأ كل الخطأ بعد فى نقاشها ، فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب ، وتمليها روح صراع ، وليدة فراغ أسئ شغله !! حتى ولو قصد بها رياضة الذهن .. ينبغى أن تظل حبيسة الفكر ، بعيدة عن آذان الجموع » (٢٢) .

على هذا النحو من الوضوح ، يلقى قسطنطين مسئولية الشقاق الحادث ، على تبعة اسكندر وآريوس ، ويلومهما على الخروج بهذه الآراء إلى الجموع ، وكان الأجدر بهما - فى تصوره - أن لا تتعدى آراؤهما ، وبالتالى خلافاتهما ، جدران الكنيسة ، بل بالأحرى زوايا فكريهما ، فالناس بجهلهم بمثل هذه الأمور سائرون وراءهما إلى فرقة أوزيغ ، ومن ثم أفصح الامبراطور عن دفين غيظه . وراح فى لهجة خلت من كل وقار ، يكيل للرجلين أقذع العبارات ويحملهما تبعة الفوضى ، ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع ، كاشفاً بكل الصراحة عن عدم اهتمامه أو حتى معرفته بطبيعة ما يصطرع حوله

---

(٢٢) EUSEB. vita Const. I, 69.

الرجلان .. قال :

« إذن لنر .. هل أصبنا حيث اختلفنا فى كلمات العبث والغباوة ، حتى نعادى بعضنا بعضاً ؟ وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكما ، أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هى تافهة .. وضيعة .. سوقية هى .. !! وخلة حمق صبيانى !! تقف والضد من حصافة الاكليروس والعقلاء » (٢٣) .

ثم يحذرهما دون مواربة :

« ذلك حديث أقوله الآن لكما ، دون رغبة فى قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كانت طبيعتها . إنكما تتشاجران على أمور لا جدوى منها ، فعليكما إن صعب الوئام ، أن تقصرا تلك على دواخل فكريكما والعقل .. أعيدوا إلىّ أياماً خوالى وليالى غفت فيها جفونى ، حتى ينالنى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة » (٢٤) .

هذان خصمان اختصموا فى ربهم ، وقسطنطين يصف المسألة بأنها « وضيعة وتافهة » و « سوقية » !! ومسلكهما بأنه « عبث وغباء وحماقة صبيانية » !! ولا شك إذن فى أن يبدو الرجل على هذا النحو ، على استعداد تام للإقدام على كل ما من شأنه أن يحفظ لدولته وحدتها وأمنها . لكن لكى يعطى الرجل فرصة حقيقية فى الدفاع عن نفسه أمام محكمة التاريخ ، فلابد أن نجلو الحقيقة كاملة ، وأن نتعرف على الجوانب الأخرى فى سلوك الامبراطور تجاه الاكليروس عامة ، حتى تصبح المحكمة على بينة .

---

(٢٣) Ibid. 71.
(٢٤) Ibid. 72.

فالرسالة التى ذكرناها تواً ، بلهجتها العنيفة ، يجب أن تفسر فى ضوء كون قسطنطين قد خرج لفوره منتصراً على آخر منافسيه ، ليكينيوس Licinius فى معركة خريسوبوليس Chrysopolis عام ٣٢٣ ، والذى لم يلبث أن أعدم فى العام التالى ، وهى نفس السنة التى كتب فيها قسطنطين رسالته إلى قطبى النزاع فى الاسكندرية اسكندر وآريوس . ولقد دخل فى روع الامبراطور ، أنه وهو الذى كسب النصر فى معركة السلاح ، قادر ببضع كلمات منه على رأب هذا الصدع ، والقضاء على هذا الخلاف الدائر جدلاً بالكلام !! لكنه كان واهماً .

ولشد ما كان غيظ قسطنطين ، عندما رأى الشطر الشرقى من الامبراطورية ، أمله ومبتغاه ، يتعرض لمثل هذا الشقاق ، فى وقت كان يعول عليه الكثير من الآمال ، بعد أن أمسى النصف الغربى من الامبراطورية يأتى فى المرتبة الثانية من النواحى السياسية والاقتصادية والعسكرية . لقد قدم إلى الشرق ، واعتلى عرش الامبراطورية منفرداً ، وراح يضع حجر الأساس فى عاصمة ملكه الجديدة ، والأمل يحدوه فى عهد آمن مستقر . كان يحسب أن الأمور تجرى لمستقر لها فى درب الهدوء ، لكنه وجد فتنة تسبح فى بحر الشغب !

وكان فشل هوسيوس فى مهمته إلى الاسكندرية ، دافعاً لقسطنطين كى يعيد حساباته كلها من جديد ، فتفتق ذهنه عن شئ يحقق به غايتين فى وقت واحد ، أولهما .. القضاء على هذا الشقاق ، وثانيهما وأهمهما ، فرض سلطانه بكونه امبراطوراً رومانياً ، يلتزم بقواعد الفكر السياسى الرومانى ، على الكنيسة باعتبارها دائرة من دوائر الحكومة الرومانية ، وليست هيئة مستقلة لها كيانها الخاص ، فدعا الأساقفة لحضور مجمع عام فى السنة التالية مباشرة (٣٢٥) فى مدينة نيقية بآسيا الصغرى ، أمه ثلاثمائة وثمانية

عشر أسقفاً ، وترأس قسطنطين جلسات المجمع ، وأدار دفة الحوار فيه ، وتدخل فى أمر عقيدة لا يعرف عنها شيئاً ، ويصف الجدال فيها بأنه « تافه وعقيم » . لكن ذلك كان شيئاً ضرورياً ليحقق غايته الثانية . ولما انتهى المؤتمرون إلى إدانة آريوس وتعاليمه ، صدق على ذلك ، وأمر بنفيه وزميليه يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى إلى غالة ، وخلع من فيض نعائمه على الأساقفة الآخرين وهم مرتحلون إلى بيعهم (٢٥) .

ولا شك أنه كان بمقدور قسطنطين أن يتخذ من قرارات المجمع المسكونى الأول هذا ، والتى صدرت بأغلبية ساحقة ، ذريعة لإعدام آريوس وزميليه ، والقضاء بذلك على دعوته نهائياً ، فيكسب بذلك عطف الكنيسة وإكليروسها بشكل منقطع النظير ، لكنه لم يفعل ، فقد راح يتحسس بدقة وذكاء متناهيين مواطئ قدمه ، وأين ومتى يضعها . وها هو الآن ينجح فى أن يضيف إلى لقب « الكاهن الأعظيم » الوثنى ، لقب « مبعوث الرب » و « الأسقف الأعلى » فى دنيا المسيحية ، ويصبح القاضى وصاحب القول الفصل فى كل أمور الكنيسة ، وسنة لخلفائه جميعاً من بعد .

لهذا لم يكد يمضى على ذلك ثلاث سنوات سوياً ، أدرك فيها الامبراطور أن شوكة النيقية قد راحت تقوى ، خاصة بعد أن توفى اسكندر السكندرى ، وخلفه أثناسيوس ، الشماس الذى كان قد جذب إليه أنظار حضور مجمع نيقية ، وعلى كرسى أنطاكية يجلس النيقى العنيد يوستاسيوس Eustathius والاسكندرية ، وأنطاكية هما حاضرتا الشرق الرومانى فى وقت لم تكن فيه القسطنطينية قد رأت النور بعد . لذا أصدر أوامره بالعفو عن يوساب النيقوميدى وثيوجنس ، بل وزاد على ذلك أن أعادهما إلى كنيستيهما ثانية،

---

(٢٥) عن تفاصيل هذا المجمع .. أنظر :

Hefele, History of the Councils of the church, New York 1972, Vol. I.

بل ومن الجدير بالذكر ، أن يصبح يوساب النيقوميدى هذا من بعد ، أحد رجالات البلاط ومن المقربين إلى قسطنطين ، وعلى يديه تلقى العماد وهو على فراش الموت [٢٦] .

وكان قسطنطين قد عفا فى العام نفسه عن آريوس ، وكتب إليه يدعوه للعودة ، وتكشف لنا المصادر [٢٧] أن الامبراطور أرسل إلى آريوس أكثر من مرة ، وآريوس يبدى امتنانه للإمبراطور ويؤثر الإعتكاف بعيداً والعزلة بواد غير ذى جدل .. بعد أن أيقن أنه أدى مهمته وبسط للناس أفكاره وكفى . وتفصح آخر رسائل قسطنطين إلى القس السكندرى عن هذا المعنى ، حيث جاء فيها : « لزمن مضى .. بلغ نيافتكم أن بمقدوركم الوفود إلى مقامنا ، بغية لقائنا . وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الإقدام ، وعليه إذن .. بادروا بالارتحال إلى بلاطنا مسرعين ، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا إياكم تضمنون العودة إلى دياركم . رعاكم الله وحفظكم » [٢٨] .

وعلى هذا النحو قدم آريوس ، وطلب منه الامبراطور أن يقدم وثيقة إيمان تؤكد توافقه مع الايمان النيقى ، وفعل آريوس ذلك امتثالاً لأوامر الامبراطور . ورغم أن الوثيقة التى قدمها خلت من جوهر قانون إيمان نيقية ، فيما يتعلق بالأقنوم الثانى فى الثالوث ، لب النزاع منذ البداية ، أعنى بذلك عبارتى « مولود غير مخلوق » و « مساو للأب فى الجوهر » [٢٩] ، مما يفصح عن تمسك آريوس بعقيدته وحرصه على آرائه رغم نفيه ، نقول .. رغم ذلك إلا أن قسطنطين اعتبر ذلك إقراراً واعترافاً بما آمن به آباء الكنيسة فى المجمع المسكونى الأول ، وسمح لآريوس بالعودة إلى الاسكندرية ، مؤملاً من أسقفها

---

(٢٦) EUSEB. vita Const. IV, 62-66; SOZOM. hist. eccl. II, 34.

(٢٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(٢٨) Id.

(٢٩) Ibid. 26.

أثناسيوس قبوله ثانية فى شركة الكنيسة .

وهنا يصبح من العسير ، أن نصدق بما تقوله المصادر التاريخية ، وكلها نيقية متحمسة ، معادية للآريوسية ، من أن قسطنطين عندما استدعى إليه آريوس ثانية من الاسكندرية ، طلب إليه أن يقدم من جديد وثيقة إيمان تثبت توافقه مع إيمان نيقية (٣٠) . إذ ليس من المعقول أن يقبل الامبراطور تلك الصيغة التى قدمها آريوس متضمنة إيمانه منذ ثمان سنوات خلت ، ويعتبرها قويمة ، ثم يعود الآن ليعيد المطلب نفسه ! كما أن قسطنطين ليس بالسذاجة التى تصفه بها المصادر ، دون قصد منها طبعاً ، كى يخدع فى هذا « الدور المسرحى » الذى قام به آريوس كما تقول هذه المصادر . هذا إلى أن آريوس لم يكن ممثلاً ولا مخادعاً كما إتهمه أصحاب هذه الروايات . فالرجل كان واضحاً منذ البداية عندما أعلن رأيه صراحة فى الاسكندرية أمام أسقفه اسكندر فى أول أيام النزاع ، رغم إدانته على يد مجمعين . ولم يكن أقل صراحة أمام مجمع الأساقفة المسكونى فى نيقية ، رغم علمه بأنه يسير ضد التيار ، وقبل النفى راضياً قانعاً مقتنعاً بآرائه . ولم يكن متلهفاً على العودة من منفاه كما رأينا . وكان واضحاً غاية الوضوح أيضاً عندما قدم للإمبراطور وثيقة إيمانه التى خلت تماماً من جوهر العقيدة النيقية .

ولقد غاب عن هذه المصادر جميعها بحكم تحمسها للنيقية ، أن آريوس عندما قدم وثيقة إيمانه بعد عودته من منفاه ، لم يكن له من سند فى البلاط يحميه . أما الآن فى عام ٣٣٦ فقد كان يوساب النيقوميدى ، الآريوسى العنيد ، يحتل مكانة مرموقة فى بلاط قسطنطين . يضاف إلى ذلك أيضاً أن ألد خصوم آريوس ، وفى مقدمتهم يوستاسيوس

---

(٣٠) ATHANAS. Loc. cit.; SOCRAT. Loc. cit.
SOZOM. Loc. cit.; THEOD. Loc. cit.

الأنطاكى وأثناسيوس السكندرى ، قد أطيح بهم من على كراسيهم الأسقفية ، وغيبوا فى المنفى ، ولم يكن إسكندر أسقف العاصمة بالشخصية القوية أو المثقفة ، التى يمكن أن تجابه آريوس فكراً أو الامبراطور سلطاناً . وسوف نعلم ذلك عنه فيما بعد بما تقوله المصادر النيقية نفسها . ولهذا فلم يكن آريوس مخادعاً - كما وصفته هذه الكتابات . ومن ثم فإنه حتى لو افترضنا أن الامبراطور قد أمر آريوس أن يقدم وثيقة إيمان جديدة ، فإنها لم تكن لتخرج عما قدمه سابقاً ودون مواربة ، وهذا ما يعترف به على استحياء المؤرخون الكنسيون أصحاب هذه الروايات .

من هنا جاءت رواية هذه المصادر ساذجة بعيدة عن قبول العقل ، فهى تقول إن آريوس عندما شخص أمام الإمبراطور فى يوم السبت ذاك ، قدم بيمناه وثيقة إيمان تتفق والايمان النيقى ، بينما كان يضع تحت ذراعه وثيقة أخرى تتضمن إيمانه الحقيقى !! فلما طلب منه قسطنطين أن يقسم على صحة ما جاء فى الوثيقة ، لم يتردد فى القسم ، وهو يعنى بقسمه الوثيقة الأخرى « المطوية » ، بينما يعتقد الامبراطور أنه يقسم على الوثيقة « الظاهرة » التى يقدمها !! ولذا اقتنع قسطنطين بصحة وقوامة إيمانه ، وأطلق سراحه إلى حيث الغد ، وأمر بأن يقبل فى شركة الكنيسة من جانب اسكندر أسقف القسطنطينية . وهكذا خدع الامبراطور فى إيمان آريوس ، وفى شخصه ، ولم يفطن إلى هذا النوع !! فهل هذا مما يتفق والعقل ؟!

ومهما يكن من أمر ، فإن الشئ الذى لا يتطرق إليه الشك ، أن آريوس لم يكن صاحب طموح سياسى كغيره من أساقفة ذلك الزمان ، الذين راح كثير منهم يتحلقون من حول العرش ، يسبحون بحمد الامبراطور ، ويغدون « أساقفة بلاط » ، ويدورون فى فلك الإمبراطور الرومانى . أما هو فقد أخلد إلى الهدوء منذ نفيه ، ولم يأت به إلى مسرح

الأحداث ثانية فى الشرق إلى الإمبراطور نفسه ، وربما على كره من آريوس ، كما تفصح رسالة قسطنطين الأخيرة إليه ، والتى عرضنا لها من قبل . وحتى بعد عودته من منفاه ، ظل بعيداً لا يشارك فى شئ من الأحداث التى امتلأت بها السنوات ما بين عامى ٣٢٨-٣٣٥ ، بل إن المتتبع لما كتبته المصادر التاريخيه الكنيسية المعاصرة ، لا يكاد يجد له ذكراً فى صفحاتها ، إلا فى هذه السنة الأخيرة (٣٣٥) ، عندما قرر مجمع القدس قبوله فى شركة الكنيسة ثانية . أما فيما عدا ذلك فقد اختفى من على مسرح الأحداث تماماً . لقد كان الرجل شيخاً طاعناً ، ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح فى سلطان (٣١) بل كل ما كان يرجوه فى دخيلة نفسه ، أن يقر الناس عقيدة آمن بها وأيقن أنها الحق المبين ، وما عداها إفك وضلال . ومن ثم لم يكن لدى آريوس ما يخشاه على نفسه ، ولم يكن هناك أيضاً ما يخشاه الامبراطور من جانب ، هذا الرجل حالة بقائه حياً .

وإذا شئنا الدقة ، فإن الذى يجب أن ينصرف إليه الذهن ، وقد يشكل خطراً معيناً ، هو يوساب النيقوميدى ، الذى كان صاحب طموح كبير ، ظل يعمل من أجل بلوغه ، حتى تمكن من ارتقاء كرسى القسطنطينية الأسقفى على عهد الإمبراطور قسطنطيوس من بعد . وكان قد أصبح بعد عودته من المنفى فى عام ٣٢٨ يمثل الزعيم الفعلى للآريوسيين ، حتى

---

(٣١) من الغريب أن نجد مؤرخاً مثل H. Chadwick يفسر ذلك بقوله إن آريوس لقى الاهمال من جانب أنصاره وخصومه على السواء ، حتى أنه شكا ذلك ، وتملكه الحزن على جفاء رفيق دراسته ومنفاه ، يوساب النيقوميدى ، له . وهذا بالطبع لا يتفق مع الحقيقة التاريخية التى يذكرها مؤرخو الكنيسة أنفسهم ، فقد ظل يوساب يسعى حثيثاً لإعادة آريوس إلى شركة الكنيسة بعد إعادته من منفاه ، ومهد السبيل لذلك بنجاحه فى التخلص تدريجياً ، وعن طريق المجامع الكنسية ، من زعيمى النيقية فى أنطاكية والاسكندرية . ثم حصل على موافقة الأساقفة فى مجمع القدس على قبول آريوس فى شركة الكنيسة . والأغرب من ذلك أن Chadwick يذكر أن هذه القضية لا تمثل أهمية للتاريخ ، " لأن آريوس نفسه فقد أهميته " . وبهذا المنطق الغريب يصبح التاريخ كله لا قيمة له !! . راجع The early church, p. 136 .

أضحى إسمه علماً على هذا الفريق ، فعرفوا باليوسابيين . وكان هو المحرك الأول لأحداث السنوات السبع هذه ، والتى تمخضت عن عزل ونفى كل من يوستاتيوس الأنطاكى ، وأثناسيوس السكندرى وغيرهما من رجالات النيقية . واحتل مرتبة سامية لدى قسطنطين بشهادة كل من سقراط وسوزومين [٣٢] . ومن ثم لو افترضنا أن الامبراطور قد دار بخلده أن يتخلص من زعماء الآريوسية ، لكان الأقرب إلى الصواب أن يكون يوساب هو المقصود وليس آريوس ، خاصة وأن الامبراطور كان قد كتب إلى كنيسة نيقوميديا فى عام ٣٢٥ رسالة تفيض قدحاً وذماً فى يوساب هذا ، بعد إدانته فى مجمع نيقية ، وعزل يوساب ثم نفيه على النحو الذى بينا من قبل ، إذ كتب قسطنطين يقول :

« من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟! من الواضح أنه يوساب .. لقد جاء أمراً إداً .. لقد تأثرتم بعقيدته فضللتم سواء السبيل ... ولعلكم تذكرون أن مجمعاً عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى ، يدفعنى الرجاء فى الوحدة ، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى ، التى تأجج لهيبها بفعال يوساب الحمقى . لقد كان يعمل دائماً وفق رغباته ، وقد امتلأ عقله بخفى الشرور ، متواطئاً مع ثيوجنس شريك تآمره » [٣٣] .

ومما يلفت النظر أن قسطنطين لم يخلع على آريوس شيئاً من صفات القدح التى خلعها على يوساب ، سواء فى هذه الرسالة أو غيرها ، وأكدت له الأحداث من بعد أن آريوس ليس إلا رجل فكر فقط ، ولا اهتمام له مطلقاً بأى أمر آخر يمكن أن يعد خروجاً على الفكر السياسى الرومانى ، وهو كل ما كان يعنى الامبراطور من أمر هذا الصراع ، ولذا

---

(٣٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 27; SOZOM. hist. eccl. II, 22.

(٣٣) THEOD. hist. eccl. I, 19.

نراه لا يتردد لحظة فى أن يوجه تهديداً مباشراً إلى الأسقف السكندرى نفسه ، عندما راح يتباطأ فى حضور المجمع الذى دعا إليه الامبراطور فى مدينة صور عام ٣٣٥ ، وجاء ذلك فى عبارات واضحة قال فيها :

« ولئن تجاسر أحد ، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون ، على عصيان أمرى ، ورفض الحضور إلى المجمع ، فلأرسلن إليه من يطرده بواقع مرسوم امبراطورى ، ويلقنه أنه لا يليق بمثله أن يعترض على قرارات الامبراطور ، حين يكون عن الحق دفاعه » (٣٤) .

ومن ثم فإنه بناء على كل ما تقدم ، يصبح من الواضح أن آريوس لم يكن يشكل خطراً أو تهديداً مباشراً لسلطان الامبراطور قسطنطين ، ولذا نراه لا يفرق بين إيمان آريوس فى وثيقته التى قدمها إليه بعد رجوعه من منفاه ، أو تلك التى نفترض أنه أقسم عليها بعد استدعائه من الاسكندرية ، وبين قانون الايمان النيقى ، رغم الفارق الكبير بينهما ، وهو الفارق الذى يمثل القضية برمتها . ونراه أيضاً يطلب فى المرة الأولى إلى أثناسيوس أن يقبله فى شركة الكنيسة ، ويوجه إلى اسكندر أسقف القسطنطينية فى الثانية نفس التوجيه ، ويرجئ ذلك إلى اليوم التالى ، الأحد ، ليكون على مرأى من الناس ومسمع . لكن ذلك لم يحدث .. فقد مات فى السبت آريوس !

ترى هل ينصرف الذهن الآن .. إلى أنصار آريوس أنفسهم ؟ ربما يكون هناك من الشواهد ما يثير هذا الارتياب !

ففى عام ٣٤١ ، أى بعد وفاة آريوس بخمس سنوات ، إلتقى الأساقفة الآريوسيون فى أنطاكية ، فى مجمع عرف باسم « مجمع التدشين » Concilium dedicationis

---

(٣٤) EUSEB. vita Const. IV 42.

للاحتفال بافتتاح الكنيسة الذهبية أو التى عرفت باسم « الكنيسة المثمنة » Eccle-siastica Octangula ، واتفقوا على صيغة إيمان معينة ، جاء فى ديباجتها :

« لم نكن فى يوم ما أتباع آريوس !! إذ كيف يعقل ونحن الأساقفة ، أن نهتدى برشد قسيس ؟! لم نبدل الايمان منذ الايمان فى البدء كان . ولقد وضعتنا المقادير قضاة فِكَرِه ، فراقنا الصدق فيها . ولكن أيعنى ذلك أنا عنه أخذنا ؟! » (٣٥) .

يبدو الأمر على هذا النحو غريباً ، إذ تبرأ الذين اتَّبَعوا من الذين اتُّبِعوا ، وتقطعت بهم الأسباب . ويزداد الأمر غرابة إذا علمنا أنه كان على رأس هذه الجماعة التى صاغت مرسوم الايمان الجديد هذا ، يوساب النيقوميدى ، الذى غدا الآن أسقف القسطنطينية ، فتحقق له بذلك حلمه البعيد . وهو صديق آريوس القديم الحميم ، ورفيق دراسته وزميل منفاه . وانضم إليه فى هذه الصياغة أساقفة أنطاكية وقيسارية وهرقلة ومرعش واللاذقية وقيسارية كبادوكيا فى آسيا الصغرى .

هل نفترض أن الغيرة قد تملكت نفوس هؤلاء الأساقفة ، الذين يرعون أسقفيات لها شأنها فى عالم المسيحية ؟ فتملك الحقد عليهم تجاه آريوس كل سبيل ؟ وذهبت بهم الظنون بعيداً، إذ كيف يتسنى لهم ، وهم من هم فى أبروشياتهم وبين رعاياهم ، أن يؤمنوا بما كان يدين به مجرد قسيس فى كنيسة الاسكندرية ؟ وكيف تبدو صورتهم فى أعين من هم دونهم فى السلم الكهنوتى ؟ ناهيك عن أعين رعاياهم لمن فقه منهم أمر هذه الخلافات اللاهوتية ؟! وقوانين التنظيم الكنسى تفرض طبقية صارمة لابد من مراعاتها تماماً فى الوظائف الكهنوتية ، ولا يمكن تخطيها أو تجاوزها . فإذا ما تعلقت المسألة بالنواحى

---

(٣٥) ATHANAS, de Syn. 22; SOCRAT. hist. eccl. II, 10.

الفكرية المتصلة بأمور العقيدة ومراسيم الايمان ، أخذت المشكلة بعداً جديداً لا يمكن تجاهله .

لقد كان يوساب النيقوميدى رجل سياسة طموحاً من الطراز الأول قبل أن يكون راعياً كنسياً ، ولم يكن يعرف المستحيل فى سبيل تحقيق طموحاته التى لا حدود لها . كان فى بدء عمله أسقفاً لبيروت [٣٦] ، ثم سعى جهده حتى اعتلى كرسى أسقفية نيقوميديا ، مقام الأباطرة فى الشرق منذ اتخذها دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ - ٣٠٥) عاصمة لملكه ، ونجح فى أن يصل حبال المودة بينه وبين ليكينيوس [٣٧] عاهل الشرق ومنافس قسطنطين ، فلما قيض النصر لهذا الأخير سنة ٣٢٣ ، لم يدع يوساب فرصة إلا واهتبلها للتقرب من الامبراطور الجديد . ورغم تعرضه للنفى لرفضه قبول قانون الايمان النيقى ، إلا أنه بعد عودته من منفاه ، أصبح شخصية بارزة فى بلاط الامبراطور ، وابنه قسطنطيوس من بعده . حتى إذا كان عام ٣٣٩ قفز على كرسى العاصمة الجديدة ، القسطنطينية ، بعد عزل أسقفها بولس ، فتحقق له ما كان يهفو إليه فؤاده .

هذه هى الصورة التى رسمها مؤرخو الكنيسة ليوساب النيقوميدى ، وهى تفصح عن مدى الكراهية الكامنة تجاه الزعيم الحقيقى للفريق الآريوسى . وهم يعلمون جيداً أن يوساب كان المحرك الأساسى لأحداث السنوات السبع (٣٢٨-٣٣٥) ، وعلى يديه راحت قلاع النيقية تسّاقط واحدة وراء الأخرى ، وراح الآريوسيون يحققون نجاحاً ملحوظاً ، ظهر بصورة واضحة فى احتلال رجالهم لكثير من أسقفيات النصف الشرقى من الامبراطورية ، بعد أن كانوا فى مجمع نيقية قلة لا يعتد بها . بل إنه لولا يوساب النيقوميدى ، على حد

---

(٣٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 3.

(٣٧) THEOD. hist. eccl. I, 19.

قول المؤرخ دوشين Duchesne (٣٨) لظلت الآريوسية جدلاً سكندرياً خالصاً ، ولأمكن القضاء عليها بسهولة . لكن يوساب هو الذى نقل هذا الصراع إلى الامبراطورية كلها !

وإلى جانب هذا .. فإن ما آلم هؤلاء المؤرخين ، أن يروا يوساب وقد احتل الكرسى الأسقفى للعاصمة الجديدة ، وكان هذا يعنى انتصار الآريوسية ، وتولى النيقية إلى الظل . ومن ثم صبت أقلامهم جام الغضب القابع فى نفوسهم تجاه عدوهم اللدود على هذا النحو الذى رأيناه .

حقيقة - وعند هذه النقطة بالذات ، ربما يكون قد دار بخلد يوساب وهو يعتلى عرش القسطنطينية الأسقفى ، أنه لا يليق بمثله أن ينتمى فكرياً إلى مجرد قسيس كان فى كنيسة الاسكندرية ، خاصة وأن الاسكندرية تذكره دائماً بخصمه العنيد ، أثناسيوس . ولم يكن من السهل على يوساب ، وهو من هو فكراً وطموحاً ، أن يسمح لمدينة لا تعدو كونها مجرد عاصمة لولاية رومانية ، أن تطاول حاضرة الامبراطورية ومستقر الأباطرة .

وعلى هذا النحو يمكننا أن نفسر كيف جاءت ديباجة المرسوم الأنطاكى على هذه الصورة ، فهى لا تعنى - كما هو واضح - نبذ العقيدة الآريوسية ، لأن أساقفة الشرق الذين سبق ذكرهم ، وفى مقدمتهم يوساب وآريوس ، كانوا أبناء مدرسة واحدة فى أنطاكية ، واختلفوا إلى أستاذ واحد هو لوقيانوس ، وتشربوا جميعاً فكره ومبادئه . ومن ثم فليس القول ذاك طرحاً لما آمن به آريوس وإليه دعا ، وبه هم الآخرون آمنوا . لكن الفريق اليوسابى أدرك الآن ، أن لفظة « الآريوسية » أضحت لا تعنى لدى الكنيسة غير « بدعة » أو « هرطقة » لفظها آباء الكنيسة فى نيقية من قبل . وأيقنوا أنهم بهذه الصفة لن يستطيعوا أن يحققوا أى انتصار لمعتقدهم . وها قد مات آريوس ، فلا ضير إذن

---

(٣٨) Duchesne, Early history of the christian church, London 1950, vol. II, p. 169.

من التخلى عن هذه اللفظة التى تمقتها الكنيسة عامة . واليوسابيون بذلك لن يخسروا شيئاً ، بل ربما ضموا إليهم نفراً من أساقفة الغرب الرومانى ، الذين كانوا بلا قدرة على فهم طبيعة هذا الجدال اللاهوتى . والمتأمل لديباجة المرسوم التى ذكرناها ، يرى أنهم لم ينكروا فكر آريوس لايمانهم الكامل به ، وعلى حد تعبيرهم ، « بعد أن راقنا الصدق فيه » . بل إن بقية المرسوم تكاد تنطق تماماً بما جاء فى وثيقة الايمان التى قدمها آريوس إلى قسطنطين عام ٣٢٨ بعد عودته من منفاه (٣٩) . بل كل ما فعلوه أنهم حاولوا التنصل من تبعيتهم لآريوس فى الاسم فقط دون جوهر فكره .

ونحن نتفق مع مؤرخى الكنيسة أن يوساب النيقوميدى كان صاحب طموحات واسعة ، ولكنه لم يكن فى هذه فريد زمانه ، بل كان نتاج عصره ، يستوى فى ذلك النيقيون والآريوسيون دون تفرقة ، فقد خرجت الكنيسة من غمة الاضطهاد التى ظلت تعانى منه ردحاً من الزمن ، ولذا كان طبيعياً أن يلتف رجالها حول صاحب السلطان الذى وهب الكنيسة الحياة ، بعد أن كانت قد أوشكت على الغرق زمن دقلديانوس وجاليريوس Ga-lerius (٢٩٣-٣١١) . ويقول جلانڤيل داونى G. Downey « ليس غريباً أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين ، الذين لم يكرسوا أنفسهم لرعاية شعبهم ، بقدر ما وجهوا غايتهم إلى المناورات السياسية فى البلاط الامبراطورى ، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية ، وتدخل الأباطرة لحلها ، فأصبح واجباً على الفرق المتخاصمة فى الكنيسة ، أن تسعى إلى كسب الامبراطور ومستشاريه (٤٠) .

---

(٣٩) يمكن المقارنة بين وثيقة إيمان آريوس ، ومرسوم مجمع التدشين الأنطاكى ، بالرجوع إلى :
SOCRAT. hist. eccl. I, 26 .
وأيضاً ATHANAS. De Syn. 22

(٤٠) داونى .. أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس ، ترجمة ألبرت بطرس ، بيروت ١٩٦٨ ، ص٨٣ .

لكن الذى لا شك فيه أن يوساب كان على قدر كبير من الثقافة اللاهوتية ، وهذا شئ نعلمه مما جرت به أقلام خصومه أنفسهم من مؤرخى الكنيسة . ومن رسائله التى بعث بها إلى عدد من رجال الاكليروس إبان الجدال الذى دار بصدد الآراء الآريوسية قبل مجمع نيقية . ويعود ذلك - كما أسلفنا - إلى أنه كان أحد تلاميذ المدرسة الأنطاكية الشهيرة . هذا بالإضافة إلى أنه كان على استعداد للذهاب إلى آخر مدى دفاعاً عن عقيدته التى يؤمن بها . وليس أدل على ذلك من وقوفه مع آريوس وثيوجنس فى نيقية ، ضد أساقفة الكنيسة الجامعة ، وقبولهم للنفى فى سبيل مبادئهم . بل وتحديه الواضح لقسطنطين الذى راح يحاوره بعد المجمع ، عله يقلع عن أفكاره ويوقع على قانون الايمان النيقى القائل بجوهر واحد للآب والابن ، وهو يعلم أن الامبراطور لن يتورع عن أن يلحقه برفيقه آريوس منفياً ، إذ وجه كلامه فى صراحة وجرأة إليه قائلاً : « هب أن هذا الرداء قد انفصم أمام ناظرى شطرين ، لعجزت أن أحاج بأن أياً منهما ينتهى إلى نفس المادة » ! ولو أن يوساب النيقوميدى هذا كان رجلاً صاحب مصلحة فحسب ، ولا شئ سوى ذلك ، لركب موجة النيقية ، على الأقل متظاهراً ، إرضاء للامبراطور ، وهو يرى أن خمسة فقط من رجال الإكليروس ، هو أحدهم ، وفيهم آريوس ، هم الذين وقفوا يتحدون أساقفة المسكونة من أجل مبادئهم ، لكن الرجل آثر النفى دفاعاً عن عقيدة يؤمن بها ويرى أنها الحق . وظل مخلصاً لآريوس طيلة حياته ، وفياً لآرائه بعد موته . وليس عنا ببعيد ذلك الجهد الكبير الذى بذله يوساب من أجل تبرئة ساحة آريوس أمام رجال الإكليروس ، إلى أن ارتضوا جميعاً قبول آريوس فى شركة الكنيسة فى مجمع القدس عام ٣٣٥ .

وتدلنا روايات المصادر التاريخية التى بين أيدينا ، أن يوساب ورفاقه كانوا مع آريوس حتى قبيل لحظات من موته ، أو بمعنى أدق حين استأذن منهم لقضاء حاجته ، وأنهم حذروا

اسكندر أسقف القسطنطينية ، بل وهددوه ، صبيحة يوم السبت ذاك ، من مغبة عدم قبول آريوس فى شركة الكنيسة فى يوم غد ، وأنهم خرجوا من القصر الامبراطورى وقد امتلأوا خيلاء وبهجة ، بعد أن قبل قسطنطين صيغة الايمان التى قدمها آريوس ، بل إن أثناسيوس نفسه يقول بالحرف الواحد ، إن آريوس وضع ثقته كلها فى قوة يوساب وتهديداته التى وجهها إلى اسكندر [٤١] .

وهنا نجد أنفسنا مسوقين تلقائياً للانتقال إلى الجانب الأخير من جوانب هذه القضية الشائكة ، أعنى خصوم آريوس التقليديين ، أى النيقيين ، الذين ناصبوه العداء حتى قبل أن يصبحوا نيقيين ، أى قبل أن يصدر قانون الايمان النيقى . وذلك منذ اختلف القس السكندرى مع أسقفه فى عام ٣١٨ . ولم يكن قد بقى من هؤلاء من يحتل مركزاً مرموقاً سوى اسكندر أسقف القسطنطينية ، بعد أن عزل ونفى معظم زعمائها ، خاصة أثناسيوس السكندرى ، ومالت كفة الدولة إلى الآريوسية فى إطار سياسة التوازن بين الفرق المختلفة ، التى وضع قواعدها قسطنطين ، ليحقق سيادته المطلقة التى يستمدها الامبراطور من الفكر السياسى الرومانى ، باعتباره « الكاهن الأعظم » ومن بعد « الأسقف الأعلى » .

وها هو المؤرخ الكنسى ، الراهب الغزاوى ، سوزومين ، يخبرنا أن الآريوسيين وعلى رأسهم يوساب النيقوميدى ، قد سعوا لعقد مجمع كنسى فى القسطنطينية ، ولابد أن هذا المجمع كان الهدف منه التصديق على قرارات مجمع القدس ، الذى عقد فى العام الماضى ، وأعاد آريوس إلى شركة الكنيسة . غير أن اسكندر ، حسب تعبير سوزومين

---

(٤١) ATHANAS. ep. ad Serap.
وراجع أيضاً : SOCRAT. hist. eccl. I, 38

« استخدم كل جهد يمكن استخدامه للحيلولة دون عقد هذا المجمع ، أو ليكون الفشل من نصيبه » (٤٢) . ولا شك أن اسكندر كان يدرك تماماً ، أن مجمعاً كهذا يعقد فى العاصمة الامبراطورية ، تحت سمع قسطنطين وبصره ، وربما مباركته ، كفيل بأن تمسى النيقية إلى أفول ، خاصة وهو يعلم أن الإمبراطور هو نفسه الذى بعث فى استدعاء رجال الاكليروس إلى القسطنطينية بعد انتهاء أعمال مجمع القدس ، فشخص عدد كبير منهم إلى هناك ، لينتهى الأمر كما أسلفنا ، بنفى الأسقف السكندرى أثناسيوس ، واستدعاء آريوس من الاسكندرية إلى العاصمة .

غير أن إسكندر سرعان ما أسقط فى يده ، عندما أخبر أن الامبراطور قد صدق على وثيقة إيمان آريوس ، وعدها أرثوذكسية ، وطلب إليه قبوله فى شركة الكنيسة صبيحة الغد ، الأحد . وأدرك أن قسطنطين جاد فى عزمه ، حتى ينتهى من هذه المشكلة التى أرقت جفنيه اثنتى عشرة سنة (٣٢٤-٣٣٦) حتى الآن ، وتأكد ذلك لديه بصورة عملية ، عندما وجه إليه يوساب النيقوميدى ، على حد قول المصادر ، وكلها كما أسلفنا فى جانب النيقية ، تهديداً مباشراً بأنه إذا لم يجب الامبراطور إلى طلبه ويقبل آريوس ، فسوف يسعى يوساب ورفاقه لدى قسطنطين ، لعزل اسكندر من أسقفيته ، واختيار غيره ليقوم بهذه المهمة .

أيقن الأسقف إذن أنه قد أحيط به ، وتلفت حواليه فإذا أعمدة النيقية فى قلعتيها ، الاسكندرية وأنطاكية ، قد تهاوت بعزل ونفى أسقفيهما ، وإذا الدائرة تضيق من حوله ، فأصيب بحالة من الهلع الذى تملك عليه كل سبيل . وإذا كان سقراط يحاول أن يخفف منها ، فيضع خوفه من فقدان منصبه فى مرتبة تالية ، وأقل بكثير من خوفه من انتهاك

---

(٤٢) SOZOM. hist. eccl. II 29.

مبادئ الايمان النيقى (٤٣) ، إلا أن سوزومين يذكرها صراحة ودون مواربة حين يقول : « إن الخوف الذى تمكن من نفس اسكندر ، كان يصدر أساساً من الحقيقة التى لا مراء فيها ، والتى تكمن فى أن الإمبراطور قد أخذ جانب الآريوسيين (٤٤) » . بمعنى أن الأسقف لابد سيفقد منصبه إذا ما اعترض رغبة قسطنطين فى عودة آريوس إلى شركة الكنيسة . ولابد أيضاً أن يكون اسكندر قد عاد بذاكرته إلى تلك اللهجة العنيفة والحازمة التى وجهها قسطنطين إلى أثناسيوس ، مهدداً بعزله ، عندما اثاقل هذا عن حضور مجمع صور ، وهى الرسالة التى أشرنا إليها من قبل .

والحقيقة أن المشكلة لم تكن مشكلة اسكندر وحده ، بل كانت قضية الكنيسة بعامة ، ذلك أن آريوس بتأكيده على « بشرية المسيح » و « خلقه » و « عدم مساواته للآب فى الجوهر » ، واحلاله مرتبة ثانية تالية للآب ، ينتهى الأمر عنده على هذا النحو إلى ترتيب فكرة « الخلاص » فى المسيحية ، على الإرادة الإنسانية ، وليس عن طريق الفناء فى المسيح من خلال شركة التناول . وهى نفس الآراء التى نادى بها الراهب الانجليزى بلاجيوس Pelagius من بعد ، ولقيت مقاومة عنيفة أيضاً من جانب أب الكنيسة اللاتينية الأشهر .. أوغسطين Augustinus فى أوليات القرن الخامس الميلادى .

وبغض النظر عن الجانب اللاهوتى فى هذا الصراع ، إلا أن الآراء الآريوسية كانت تحمل فى طياتها تهديداً خطيراً لنفوذ الاكليروس وسلطانه الكنسى ، بما يترتب على جعل فكرة « الخلاص » متعلقة بإرادة بنى البشر أنفسهم ، دون وساطة غيرهم من رجال الإكليروس . ولعل هذا يتضح مما جاء فى رسالة يوساب النيقوميدى إلى باولينوس Paulinus أسقف

(٤٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٤٤) SOZOM. hist. eccl. II, 29.

صور ، حيث يقول : « ... إذا كانت تسمية الابن بالمولود تدعو البعض إلى الجهر بأنه قد أتى من نفس جوهر الآب ، ويحمل من الآب فى الطبيعة شبهاً ، لأجبناهم أنه ليس هو وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بأنه « المولود » ، بل عن آخرين مخالفين له فى الطبيعة ، فقد ورد على لسان بشر « ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا علىّ » (أشعياء ١/٢) وأيضاً : « من ولد مآجل الطل » (أيوب ٢٨/٣٨) . والتعبير هنا لا يعنى أن قطرات الندى شريكة لله فى طبيعته ، لكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق إرادته . ليس هناك - والحق أقول - شئ من جوهره ، وإنما كل ما فى الوجود من صنعته . هو الله .. كل شئ قد جبل على وفق كلمته ، خلق بمحض إرادته . كل شئ من الله »[٤٥] .

وهذه الناحية يمكن الوقوف عليها من أقلام مؤرخى الكنيسة أنفسهم ، عندما يصنف سوزومين[٤٦] مثلاً العناصر التى وقفت تؤيد آريوس ، وتلك التى بقيت إلى جانب اسكندر السكندرى فى بداية الخلاف . فالمثقفون من رجال الاكليروس فى الشرق ، والمتضلعون من دراسة الفلسفة والمنطق الأرسطى فى سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، كانوا كلهم على قلب رجل واحد هو آريوس . أما الجموع والرهبان وإكليروس الغرب الذين لم يكونوا على قدر من الثقافة اللاهوتية ، تؤهلهم لفهم مثل هذه الأمور الجدالية ، كما يصفهم بذلك صراحة المؤرخ جيبون[٤٧] أو حسب تعبير المؤرخ مارتن Martin « إن حمى هذا الجدال لم تقو على أن تعبر الألب إلى غالة »[٤٨] فقد انحازوا للطرف الآخر . ويدلنا

---

(٤٥) EUSEB. epistula ad Paulinum (in THEOD. hist. eccl. I, 5).

(٤٦) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

(٤٧) Gibbon, The decline and fall of the Roman Empite, London, 1929, Vol. II p. 350.

(٤٨) Martin, Histoire de France, Paris, 1849, I, p. 305.

على ذلك أيضاً حالة جموع الأساقفة الذين قدموا لحضور مجمع نيقية ، وكيف شهدت الجلسات الأولى للمجمع اتهامات « شخصية » عنيفة ، راح عدد ليس بالقليل من رجال الاكليروس يكيلونها لبعضهم بعضاً ، متناسين تماماً قضية العقيدة التى قدموا أصلاً لمناقشتها ، حتى لقد هال ذلك قسطنطين فراح يخاطبهم بقوله :

« ترى .. ما كل هذا ؟! ذاك شئ يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب ، يفصل فيه القاضى الأعظم ... ما بالكم تختصمون وكل الخصوم رجال الله ؟! ما كان لهم أن يقفوا إزاء بعضهم على طرفى نقيض . إذن فليحل بينكم الوئام ، ولتطرحوا على التو جانباً كل هذه الشكايات ، ولنعط اهتمامنا لشئ من أجله جئنا .. ذلكم هو الإيمان » [٤٩] . وما لبث الامبراطور أن أصدر أوامره ، فجمعت حصيلة الأيام من هذه الاتهامات ، وأطعمت بها النيران [٥٠] .

وإذا أضفنا إلى ذلك أن اسكندر أسقف القسطنطينية ، لم يكن له من الشخصية ما كان لغيره من رجالات النيقية ، مثل سميه السكندرى ، أو أثناسيوس ، أو يوستاتيوس الأنطاكى ، والأخيران بصفة خاصة آثرا التمسك بآرائهما العقيدية وقبلا فى سبيلها العزل والنفى . كما لم يكن على قدر من الثقافة اللاهوتية كتلك التى كان عليها يوساب القيسارى شيخ مؤرخى الكنيسة ، ناهيك عن زعماء الآريوسية ، آريوس وصديقه أسقف نيقوميديا . ومن ثم كان على بينة من أمر نفسه ، بأنه ليس نداً لمناظرة آريوس أو يوساب ، إذا ما طلب إليه ذلك ، وهو ما كان يخشى حدوثه فى صبيحة الغد ، الأحد ، على مرأى من أهالى القسطنطينية ، الذين انقسموا بدورهم بين مؤيد للآريوسية

---

(٤٩) SOZOM. hist. eccl. I, 19.
(٥٠) Id.

ومعارض [٥١] . نقول إذا أضفنا ذلك ، أدركنا أن فقدانه لمنصبه كراع لكنيسة العاصمة الامبراطورية ، يصبح واقعاً لا محالة ، لعدم كفاءته اللاهوتية ، والتى سوف تكون دافعاً أساسياً ، إلى جوار دوافع أخرى عديدة ، تجعل قسطنطين مصيباً فى حرمانه من منصبه الأسقفى . وهذا هو ما عبر عنه على استحياء سقراط ، وما ذكره دون مواربة سوزومين . ولو أن المسألة كانت عنده تعنى فى المقام الأول ، قضية الدفاع عن إيمان نيقية - كما يقول سقراط - لفعل كما فعل يوستاتيوس الأنطاكى أو أثناسيوس السكندرى ، وآثر العزل والنفى مفضلاً إياه على « الخوف » من ضياع كرسيه !

لذا لم يكن أمام اسكندر من سبيل ، كما تخبرنا الروايات المعاصرة ، إلا أن يلجأ إلى كنيسة « ايرين » Irene [٥٢] وينبطح أمام المذبح داعياً ربه بإحدى اثنتين .. إما أن يقبض روحه ، إذا كان لابد لآريوس أن يقبل فى شركة الكنيسة ثانية ، وإما أن يحل بآريوس غضبه وعدالته إذا كان اسكندر على صواب . وراح يتوسل متضرعاً . ودموعه تبلل لحيته ، حتى استجابت السماء لدعائه ، فمات آريوس حتى قبل أن يفرغ اسكندر من صلواته !!

غير أن الروايات عند هذه النقطة ، يبدو فيها الخلط والاضطراب واضحاً ، مما يضع أمامنا علامات استفهام كبيرة ، فأثناسيوس ومن نقل عنه ، سوزومين وثيودوريت ، يذكرون أن اسكندر فعل ذلك عقب التهديدات التى تلقاها من يوساب النيقوميدى ، بأنه سوف يفقد منصبه فى اليوم التالى ، إذا لم يقبل آريوس ، وكان ذلك بعد انصراف يوساب وآريوس من حضرة الامبراطور مباشرة ظهر يوم السبت ، ووثوقهما من وقوفه فى صف

---

(٥١) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.
(٥٢) Id.

قضيـة آريـوس . إلا أن سوزومـين يقـرر أن اسكندر ظل على صلاته ودعائه طيلة هذه الليلة ، بينما يذكر فى السطر التالى مباشرة أن آريوس مات فى عصر ذلك اليوم . فكيف يستقيم هذا ؟ على حين يكتب أثناسيوس قائلاً إن اسكندر واصل صلواته مبتهجاً بعد أن علم بنبأ وفاة آريوس ! فهل كان سوزومين يقصد ذلك ؟ أم ترى أن اسكندر عنده لم يعلم بوفاة آريوس إلا فى صبيحة اليوم التالى ؟!

ويزيد سقراط المسألة اضطراباً وغموضاً ، عندما يذكر أن هذه الصلوات استمرت لعدة أيام وليال متتابعات ! والغريب أنه يقول ذلك بينما يذكر قبله مباشرة ، أن اسكندر فعل ذلك بعد التهديدات التى تلقاها من يوساب النيقوميدى ، والمعروف أن هذا التحدى جاء يوم السبت بعد لقاء الامبراطور !! ثم نراه يذكر فى فقرة تالية مسألة فحص قسطنطين لوثيقة إيمان آريوس ، وما كان من إصدار أمره إلى اسكندر بقبوله فى شركة الكنيسة فى يوم غد . والرواية هنا أيضاً لا تستقيم . إذ كيف يقدم يوساب على تهديد اسكندر بالعزل ، قبل أن يضمن وقوف الامبراطور إلى جانبه ؟ ومن كان يدريه أن الامبراطور لن ينتصر لأسقف مدينته حتى يحدث التوازن المطلوب بين النيقيين والآريوسيين ؟ فها هو أثناسيوس فى المنفى ، ويوساب النيقوميدى فى البلاط ، إذن فليظل اسكندر راعياً لبيعته ، ويبقى آريوس خارجها . والشواهد على ذلك كثيرة فى إطار علاقة قسطنطين بالفرق المسيحية المتصارعة . إذن فليس من المعقول أن يقدم يوساب على تهديد اسكندر - كما يقول سقراط - قبل يوم السبت بأيام وليال عدة ، وقبل أن يطمئن قسطنطين إلى صحة إيمان آريوس .

شئ آخر يحتاج إلى توضيح .. فأثناسيوس يقول إن « مكاريوس » هو الذى نقل إليه تلك الرواية عن موت آريوس ، ذلك أن هذا الكاهن كان فى القسطنطينية لحظة وقوع هذه

الأحداث ، بينما كان أثناسيوس - كما أسلفنا - منفياً فى غالة . ثم يضيف أثناسيوس ، أنه عندما لجأ اسكندر إلى الكنيسة وأخذ فى الصلاة والابتهال والضراعة ، كان مكاريوس هذا رفيقه فى الكنيسة ، وشريكه فى صلاته ودعائه ، بل وفى سماع صلواته ، ويؤكد أثناسيوس على ذلك بشدة . بينما لا يذكر سوزومين شيئاً عن هذا الأمر . على حين نجد سقراط يؤكد فى إصرار ، أن إسكندر دلف وحده إلى الكنيسة ، وأغلق نفسه على نفسه ، إذا صح هذا التعبير ، ثم يقول بالحرف الواحد : « ولم يطلع أحداً أبداً على غرضه » !

فما هو غرض اسكندر هذا الذى لم يعلنه لأحد ؟ وما هو هدفه الذى أخفاه ، إذا كان سقراط يذكر فى الأسطر التالية مباشرة ، دعاء اسكندر بأحد الأمرين اللذين سبق لنا ذكرهما منذ قليل ؟ لابد أنه قد أسر فى نفسه شيئاً معيناً وانتوى أمراً ، ولم يشأ لأحد أن يعلم خبيئة نفسه . ولكن .. كيف نوفق بين هذا وما يقوله أثناسيوس فى إصرار من أن مكاريوس كان معه ، يصلى معه ، ويسمع صلاته !! ومن هو مكاريوس هذا الذى يبدو أنه كان أحد رجال الإكليروس القريبين من أثناسيوس ؟ وما دوره ؟ ولماذا هو بالذات دون غيره من إكليروس اسكندر ، الذى دخل مع هذا الرجل إلى الكنيسة ليكون رفيق صلاته ودعائه ؟ ولم لم يرد له ذكر عند سوزومين ، والذى عرف عنه ولعه بذكر مثل هذه القصص فى كتابه ؟ ولم يؤكد سقراط على عدم وجود أحد على الإطلاق مع اسكندر ، الذى لم يطلع على مكنون نفسه وغرضه هذا أحداً ؟ وأين كان عندما جاءت اسكندر الأنباء بوفاة آريوس ، فراح يواصل صلواته كما علمنا من أثناسيوس ، دون أن يشرك معه مكاريوس الآن ؟!

تساؤلات عديدة ، لابد تثور فى ذهن أى باحث يرى هذا الاضطراب فى روايات مصادر تلك الفترة ، عن الساعات التى سبقت موت آريوس . ولا تخفى المصادر كلها فرحة

النيقيين وفى مقدمتهم اسكندر ، للنهاية التى انتهى إليها آريوس ، وإن كانوا يفسرون ذلك فى ضوء انتقام السماء من هذا القس السكندرى ، الذى جهر بآراء تخالف ما كانت تدين به الكنيسة . وإن كانت الآراء الآريوسية هذه نفسها ، هى التى أدت إلى اختيار صيغة الايمان التى انتهى إليها آباء المجمع المسكونى الأول فى نيقية ، وأصبحت قاعدة الايمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة من بعد . هذا على الرغم من أن موت آريوس ، كما يعلق سوزومين (٥٢) ، لم يؤد إلى وضع حد أو نهاية للجدل العقيدى .

بل إن موت آريوس لم ينتج عنه ما كان يؤمله النيقيون بموته ، إذ ظل قسطنطين طيلة العام الذى كان قد بقى له من حياته ، يقرب إليه يوساب النيقوميدى ، بل ويتلقى على يديه سر المعمودية حين حضرته الوفاة ، وإن لم يكن قسطنطين بالطبع آريوسيا ، ولا كان حتى نيقياً ! بل ولن تلبث الآريوسية أن تصبح لها السيادة الكاملة فى الامبراطورية على عهد ولده قسطنطيوس ، ثم الامبراطور فالنز Valens من بعد بين عامى (٣٦٤-٣٧٨). وإن كانت النيقية قد كسبت الجولة الأخيرة من جولات هذا الصراع العقيدى ، بعد أن انتصر لها الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥) ، وأوقع هو وخلفاؤه الاضطهاد العنيف ، بكل العقائد والمذاهب الأخرى المخالفة فى الامبراطورية .

بقى أن نتساءل فى النهاية عن موقف قسطنطين من هذه الحادثة ؟ وكيف استقبل خبر موت آريوس ؟ فبينما نجد سوزومين وثيودوريت ، وقبلهما - عن القضية كلها - يوساب القيسارى ، يلتزمون الصمت التام إزاء ما كان من موقف الامبراطور ، ولا يدلون - على غير عادتهم فى مثل هذه الأمور - بأى تعليق ، نجد سقراط يقول فى جملة واحدة : « لقد

---

(٥٢) SOZOM. hist. eccl. II, 31.

ابتهج الامبراطور بما حدث » ! ويعلل هذا « الابتهاج » فى إطار « اهتمام » قسطنطين المتزايد بالمسيحية ، والتبجيل لقانون الايمان النيقى . ويقرن « فرحة » الامبراطور هذه بسعادته بأبنائه الثلاثة الذين أعلنهم قياصرة ، وقسم فيما بينهم إدارة الحكم فى الامبراطورية .

أما الأسقف السكندرى أثناسيوس ، فكان أكثر دقة من سقراط فى وصفه للإمبراطور ، حال تلقيه هذه الأنباء ، إذ ذكر ما نصه أن « المبارك قسطنطين تملكته « الدهشة » عندما علم بموت آريوس ، ونظر إلى ذلك باعتباره برهاناً على نتيجة الأيمان الكاذبة » يعنى ذلك القسم الذى أقسمه آريوس بصحة إيمانه وتوافقه مع العقيدة النيقية . ثم يعلق أثناسيوس على ذلك بقوله : « وهكذا يتضح للجميع أن الآريوسية وإن لقيت الدعم والتأييد من جانب الامبراطور ، ومن كل الناس ، إلا أنها تظل تحت طائلة الإدانة » .

وهذا الذى يقوله أثناسيوس لا يحتاج إلى تعليق ، فالامبراطور عنده لم « يبتهج » كما أراد له سقراط من بعد ، ولكنه أصيب بـ « الدهشة » والأسقف السكندرى مصيب تماماً فيما يقول ، فقسطنطين لم يكن يبهجه أبداً موت آريوس ، ولا موت أحد أيضاً من زعماء النيقية ، فكلاهما بالنسبة له ورقة رابحة يمارس بها « لعبة » التوازن بين الفرق المتصارعة فى دولته ، وهى السياسة التى أتقنها تمام الاتقان ، ووصل بدولته عن طريقها إلى بر الأمان خلال عهده ، وفرض من خلالها سلطانه باعتباره « الامبراطور الرومانى » على الجميع .. حتى إذا مات بكاه هؤلاء الجميع . بينما افتقد خلفاؤه مهارته السياسية هذه وذكاءه . وكان بلاطه نموذجاً حياً لهذه السياسة ، يجمع فيه أضداد الخلائق وشتى الفكر . فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من الوثنيين ، وإلى جوارهم

مستشاره لشئون الكنيسة ، هوسيوس أسقف قرطبة ، النيقى المتحمس . وفى الناحية الأخرى يقف يوساب النيقوميدى الآريوسى العنيد ، صاحب الحظوة لدى الامبراطور ، وبين هؤلاء وأولئك صديقه يوساب القيسارى ، رجل الفكر المعتدل . كان قسطنطين يجمع فى بلاطه بين النار والجليد ، فلا هذا أطفأ تلك ، ولا أذابت النار الجليد !

ومن ثم لا نجد لهذا « التهليل » و « الإطراء » و « مواكب الاحتفالات » التى أقامها مؤرخو الكنيسة لقسطنطين بعد تأييده لقرارات مجمع نيقية ، ونفيه لآريوس وصحبه ، على صفحات طويلة من كتبهم ، أثراً عند سماعه بنبأ موت آريوس ! بل ليس من المبالغة فى شئ ، القول إن الامبراطور ربما عد فقدان ذلك القس السكندرى ، خسارة له بالمقاييس السياسية التى يتبعها . لهذا لم يكن أثناسيوس بعيداً عن الصواب عندما قرر أن الامبراطور كان يؤيد الآريوسية ، وأنه أبدى فقط « دهشته » لموت آريوس .

وليس بعيداً عن مجال موضوعنا هذا أن نضيف بأن مسألة اللجوء إلى العنف فى بعض الأحيان من جانب بعض رجال الاكليروس ضد خصومهم ، كانت أمراً وارداً فى تلك الفترة ، بل وأيضاً تدبير المؤامرات واحاكة الدسائس .. وهذا الأمر بطبيعة الحال لا يعد مسألة عامة ، بل كانت تجرى من جانب نفر يحاولون تحقيق أغراضهم بأية وسيلة من الوسائل ، وهؤلاء كما قدمنا ، يمثلون الأساقفة السياسيين أو أساقفة البلاط ، وقد بلغ هذا الحال مداه ابان القرن الخامس الميلادى عندما اشتد الصراع بين الكنائس الرسولية فى الامبراطورية حول الزعامة الكنسية ، وكانت أوضح الأمثلة على ذلك ما تعرض له الأسقف السكندرى ديوسقورس Dioscorus من إيذاء وصل إلى حد الاعتداء بالضرب والتنكيل فى المجمع المسكونى الرابع الذى عقد فى مدينة خلقيدونية Chalcedon عام ٤٥١ ، وذلك على يد رفاقه من رجال الاكليروس فى الشرق ، الذين حسدوا الاسكندرية على

مكانتها ، مما دفع أحدهم إلى القول « يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الأساقفة إلى الضياع ، ولكن إذا ذهب ديوسقورس نفسه فلن يظل العالم بلا أسقف » .

ومهما يكن من أمر آريوس ، فإن خصومه وحدهم ، هم الذين أبدوا ارتياحهم لموته ، كما يحدثنا بذلك صراحة مؤرخو الكنيسة ، ولم لا وهو الذى شغل فكر الاكليروس وأجهزة الدولة والامبراطور ، بآرائه ، طيلة ثمانية عشر عاماً (٣١٨ - ٣٣٦) . وإن كانت الآمال التى داعبتهم لم يقدر لها أن تتحقق فى المدى القريب ، على الأقل خلال نصف القرن الذى أعقب وفاته ، إذ ظلت السيادة للعقيدة الآريوسية إبانها .

والغريب فى الأمر أنه رغم صدور المئات من الكتب التى تتناول تاريخ الكنيسة بالتحليل ، فإن هذه القضية لم تحظ عند أى منها بالدراسة أو حتى التوقف عندها . وقد يكون هذا الصمت المطبق أو التجاهل المتعمد دليلاً جديداً فى يد أنصار آريوس ضد خصومه ، خاصة وأن من كتبوا عن تاريخ الكنيسة ، قديماً وحديثاً ، كلهم يعلن الحرب على آريوس والآريوسية ، ومن ثم كانت هذه محاولة لكشف الغموض عما صحب موت آريوس المفاجئ والبشع فى الوقت نفسه .

ومهما كانت التحريات . ومهما كانت الملابسات ، فإن قضية اغتيال آريوس تظل معروضة على محكمة التاريخ !!

المصادر والمراجع

- ATHANASIUS, Apologia contra Arianos : Nicene Fathers, IV 2, 100-147 .

- Depositio Arii, Nicene Fathers IV 2, 69-71 .

- Chadwick (H.), The Early church, London 1974 .

- Creed (J.M.), Egypt and the christian church, in (Legacy of Egypt), Oxford 1947 .

- Copleston (F.), A history of philosophy, vol. 2, p. I, New York 1962 .

- Dictionary of Christian Biography, 4 cols. ed. by William Smith and Henry wace. London 1877 .

- Dicionnaire de theólogic Catholique, 15 toms. Paris 1923 sqq .

- Downey (G.), A history of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest - New Jersy 1961 .

- Duchesene (M.), Early history of the christian church from its foundation to the fifth century, trans. in 3 vols. London 1950.

- EVSEBIVS, - Epistola ad Paulinum (in Theodoretus, historia Ecclesiastica, I, 5) .

- EVSEBIVS, - Vita Constantini : Nicene Fathers, I. 2, 473-580 .

- Gibbon (E.), The decline and fall of the Roman Empire, ed. by J. B. Bury in 7 vols. London 1929 .

- Hefele (C.S.) History of the Councils of the church, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W.R. Clark, Edinburg 1972 .

- Jackson (B.), The history of the Christian church from the earlist times to the death of S. Leo the Great A.D. 461, London 1909 .

- Martin (H.), Hitoire de France 8 Tomes, Paris 1849 et sqq .

- Neander (A.) Lectures on the history of Christian dogmas, 2 vols. London 1882 .

- SOCRATES, Historia Ecclesiastica : Nicene Fathers II, 2, 1-178 .

- SOZOMENOS, Historia Ecclesiastica : Nicene Fathers II, 2, 239-427 .

- THEODORETUS, Historia Ecclesiastica, Nicene Fathers III, 2, 53-1599 .

- داونى (ج) - أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس ، ترجمةألبرت بطرس ، بيروت ١٩٦٨ .

- رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٨٢ .

: الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٨٣ .

: الدولة والكنيسة ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٨٤ .